وقبل الكشف عن ثمرات هذا المنهج الفذ فإني أتجول بأخي القارئ في زوايا القرون السالفة لنعاين عن قرب شيوع هذا المنهج في أوساط الأئمة المتقدمين؛ ليكون ذلك أوثق في صدرك من مطلق التنظير، مع أنَّ الشواهد علىٰ هذا المنهج بلغت حدًّا يتمرد علىٰ الحصر، إلا أن إثبات طرفٍ منها نافعٌ مفيد.

صفحاتٌ من حياةِ الأئمة:

ذكر أهل التراجم أنَّ سليمانَ بن إبراهيم التعزي مرَّ علىٰ صحيح البخاري مائة وخمسين مرةً ما بين قراءةٍ وسماعٍ وإسماعٍ ومقابلة، وحصَّل من شروحه كثيرًا، وكان محدث أهل بلده[١].

وجاء في ترجمة أبي بكر الأبهري المالكي أنه كان يحفظ أقوالَ الفقهاءِ حفظًا مشبعًا، وأنه قال: قرأت مختصر ابن الحكم خمسمائة مرة، والأسدية خمسًا وسبعين مرة، ومختصر البرني سبعين مرة، والموطأ خمسًا وأربعين مرة!.

وثمرة ذلك ظاهرةٌ في إجماع أهل العلم علىٰ إمامته؛ فإنه كان المُعَظَّمُ عند علماء سائر وقته، لا يشهد محضرًا إلا كان هو المقدَّم فيه، حتىٰ كان أصحابُ أبي حنيفة والشافعيِّ إذا اختلفوا في أقوال أئمتهم يأتون إليه يسألونه، ويرجعون إلىٰ قوله..

وقد شاع في الناس أنه لم يعط أحدٌ من أهل العلم والرئاسة فيه ما أعطي الأبهريُّ في عصره من الموافقين والمخالفين[٢].

وعلىٰ سعة اطلاع الإمام النووي علىٰ مصنفات المذهب الشافعي إلا أنَّ عنايتَهُ بمتن التنبيه للشيرازي وكتاب الوسيط للغزالي كانت أكمل؛ فالذي يظهر

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ لابن حجر (٧/ ٤٧٤).

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (١/ ٤٢٧).

أنه جعلهما أَصْلَيِ الضبط المرجعي عنده؛ فإنه حفظ التنبيه في أربعة أشهر ونصف، وصنَّف كتابًا في تصحيحه، وآخر في لغاته، وكتب عليه نكتًا، وشرع في شرحه كما شرع في اختصاره(١).

وأما الوسيط للغزالي فإنه نوزع مرةً في نقلٍ عنه فقال: تنازعوني في الوسيط وقد طالعته أربعمائة مرة!(٢).

وأغلب جهود الإمام الرافعي كانت علىٰ وجيز الغزالي.

وألقىٰ ابن العجمي الشافعي كتاب المهذب للشيرازي دروسًا خمسًا وعشرين مرة(٣)، مع أنَّ الكتابَ ليس متنًا صغيرًا؛ فقد طبعته دار القلم بتحقيق شيخنا الدكتور محمد الزحيلي وتعليقه في ستة مجلدات.

ولما تكلم ابن السبكي عن أبيه أفاض في ترجمته ومما قال: وأما استحضار نصوص الشافعي وأقواله فكان يكاد يحفظ الأم ومختصر المزني، وأما استحضاره لكتاب سيبويه وكتاب المقرب لابن عصفور فكان عجيبًا، وكنت أقرأ عليه المحصول للإمام فخر الدين والأربعين في الكلام له والمحصل، فكنت أرىٰ أنه يحفظ الثلاثة عن ظهر قلب، وأما المهذب والوسيط فكان في الغالب ينقل عبارتهما بالفاء والواو، وأما شرح الرافعي الذي هو كتابنا ونحن ندأب فيه ليلًا ونهارًا فلو قلت كيف كان يستحضره لاتهمني من يسمعني، وكان يقال: إنه يستحضر الكتب الستة.. إلخ(٤).

وظاهرٌ من حروف هذه الترجمة الساطعة أنَّ الإمامَ السبكي كان يتخذ كتبًا

---

(١) ارتياض العلوم لمشاري الشثري ص (١٠٤).

(٢) المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي للسخاوي ص (٢٧).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٣/ ١١٥).

(٤) طبقات الشافعية الكبرىٰ لتاج الدين السبكي (١٠/ ١٩٨-٢٠٠) بتصرف.

في كل فنٍّ يدمن فيها النظر، حتىٰ علا في سماء الضبط ما رأيت في وصفه.

وابن السبكي نفسه يقول أثناء ذلك عن شرح الرَّافعي: هو كتابنا، ونحن ندأب فيه ليلًا ونهارًا، مما تجزم معه أن ثقافة إدمان النظر في كتبٍ بعينها هي المستفيضة من حال سلفنا الصالح من أئمة الفهم والضبط والتحقيق، ولهذا كان ينبغ الرجل فيهم سريعًا.

وورد في ترجمة عبد الله بن محمد الزريراتي البغدادي فقيه العراق ومفتي الآفاق أنه طالع المغني للموفق ابن قدامة ثلاثًا وعشرين مرة، وكان يستحضر أكثره، وعلَّق عليه حواشيَ وفوائد(١).

وكان أبو الفداء إسماعيل بن محمد الحراني شيخ المذهب الحنبلي في زمانه علىٰ خبرةٍ تامةٍ بالمذهب، وكان يكتب بخطه المغني والكافي، ويقال: إنه أقرأ المقنع مائة مرة!.

لكنَّ هذا الجهد المدهش لم تأت به جهود متفرقة مبعثرة في فضول الأوقات لديه؛ بل دفع ثمنها من عرقه ووقته؛ فقد ذكروا في ترجمته أنَّ أوقاته كانت محفوظة، وليس له كلامٌ في غير العلم(٢).

وذكر ابن كثير في ترجمة الشيخة الصالحة العابدة الناسكة أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح البغدادية أنها كانت من العالمات الفاضلات، وكانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وكان يثني عليها ويصفها بالفضيلة والعلم، ويذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيرًا من المغني لابن قدامة أو أكثره، وأنَّه كان يستعدُّ لها من كثرة مسائلها، وحسن سؤالاتها، وسرعة فهمها(٣).

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ص (٣٤٧).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ص (٣٤٦-٣٤٧).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ٨٢).

بل بلغ الحال ببعض العلماء أن يُنسب إلىٰ كتابٍ بعينه لفرط عنايته به، كما نُسِب أبو عبد الله محمد بن سليمان الرومي الحنفي لكتاب الكافية في النحو لابن الحاجب، فصار يُعرف بالكافيجي[1].

وجعل الشيخ أحمد الحملاوي صاحب «شذا العرف في فن الصرف» أساس دراساته النحوية والصرفية علىٰ كتاب «أوضح المسالك» لابن هشام، وكان معجبًا به، ومنه التقط أغلىٰ دُرره التي ألف منها كتابه «شذا العرف»، مع ما أضاف إليه من مفصل الزمخشري وشافية ابن الحاجب وغير ذلك.

وقرأ الشيخ حماد الأنصاري فتح الباري عشرين مرة، وقرأ ابن باز شرح صحيح الإمام مسلم ثلاثين مرة، وقرأ الشيخ أحمد حطيبة كتاب المغني ثماني مرات.

وهذه والله أكثر العادات نهضة في حياة أصحابها.

ثمرات إدمان النظر في عمدة الكتب:

لا تحسبن تكرار القراءة للكتاب الجيد يهدف إلىٰ استظهار مسائله ودلائله فحسب؛ بل هذه حسنةٌ قريبةُ المنال، ويمكن أن تتحقق بتكرار الكتاب بضع مرات؛ وإنما الغاية الكبيرة الفوزُ بإحكامِ العلم، وعمقِ الفهم، ودقة النظر، وجودة الاستنباط، وتكوين الملكة، وبناء العقل، وتحصيل المفاهيم، واكتشاف آلية صناعة المعرفة ليتيسر صناعةُ مثلها عند الحاجة.

وذلك أنَّ القارئَ للكتاب أول مرة يُرَكِّزُ علىٰ أصلِ المعنىٰ، فإذا أعاده أدرك المعنىٰ ومعنىٰ المعنىٰ، ويبقىٰ هكذا كلما أعاده أدرك شيئًا جديدًا من نحو معرفةِ لوازمِ المسائل، والأصل الذي بُنِيَت عليه، وتحقيق القول فيها، والوقوف علىٰ

---

(١) معجم المؤلفين لعمر كحالة (١٠/ ٥١).